

حق البلاء فكانوا يعملون أن لصمته مصدراً آخر أعمق من هذه المصادر كلها، وأن كانت هذه لمصادر حق تؤثر فيه الصمت، وتطبعه عليه. أما المصدر الخطير فكان تفكيراً ملحاً من تفكير حنيف - كما كانوا يقولون - أو وعي حر - كما تعودنا أن نقول اليوم - من وعي الاحرار المفكرين، وكان الوعي في عهده متملماً يبرق إلى الواعين، ويخامرهم، ويؤامرهم، ويحثهم حثاً عنيفاً على إعادة النظر بهذه الوثنية المظلمة، وبهذه العادات الرثة، وبهذه الانظمة البالية، ولكنهم كانوا يخشون الجهد، ويخافون الظهور، ولا سيما مستضعف كعمار، أكبر حجتة في بقائه بمكة خلف أبيه لابي حذيفة، وكل قوته أنه منسوب إلى هذا الزعيم من مخزوم، فما أحراره إذ يضطرب وعيه بعيب لالهة، أو نقد للتقاليد أن يتخلي عنه أبو حذيفة، وما أحراره إذ يتخلي عنه أبو حذيفة أن تمزقه الشياطين، أو تتقاذفه الغلمان، أو تتخطفه الشياطين، فيذهب من أجل هذا صامتا صمته العميق المفكر، مودعا سادة قريش مودعة أحلافهم وعبيدهم، منتظراً مع هذا وذاك رجفة الزلزال التي يحسها في نفسه، ويحسها في نظرائه، ويحسها في سير الاحداث.

وكان خلال صمته ينتقد بينه وبين نفسه، وربما انتقد بينه وبين أبيه مصير مكة في عهده، وسوء منقلب سادتها أو أكثرهم ممن أسرفوا على مكة وعلى الناس وعلى أنفسهم، فارتدوا جابرة يوشك أن يبدلوا أمن (البيت) خوفاً، ويعيدوا بشاشة الحياة عبوساً، ويردوا رجاء العيش شدة، فهؤلاء سفهاء من أمية وجمع وسهم وعدى، لا تكفيهم أفيأؤهم ومرايحهم، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلهن الشيطان من نساء الحاضرة حتى يسطوا بتجارة الغرباء، ويغلبوا الزائرين على بناتهم، فيبلغوا حاجتهم من الاموال والاعراض بغزو أبشع من غزو البادية وأشنع وأشد استهتاراً.

قال لابييه مرة: ويح هؤلاء السفهاء، ألا يتقون شر هذه البدع المنكرة في قدس بلدهم الذي به يحيون، إن لم يتقوها في زكاة أنفسهم، وتقوى ضمائرهم، ألا ينظرون إذا تسمع بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصر في التجارة، أن يخلعوه من (البيت) ويزيلوهم من الحكم، أو يقاطعوهم إذا لم يستطيعوا